شعار على جدار ببغداد

لأنهم يتجاهلون مطالبَ الشعب.. الحيطان تتكلم...

إذا أردت أن تعرف بماذا يفكر العراقي... اقرأ الكونكريت

ألوان زرق وصفر ، وفي الغالب سود، بخطوط كبيرة وصغيرة ، بأيدٍ مرتعشة وخائفة، أخطاء في الصياغة ، ابتلاع بعض الحروف ، شطب وحذف ، صبغ بديل ، كلمات أخرى ، عهد جديد.
" يسقط الوصي " .... " نريد الكهرباء والماء " ، شعارات كتبت تحت جنح الظلام ، تحكي تاريخ الدولة العراقية منذ نشوئها في عشرينيات القرن الماضي إلى اليوم ، أبطالها رجال متمردون على الواقع ، ومادتها الأساسية الكتابة على الجدران .
في بلد كان قبل سنوات يحكم على من يجرؤ على لصق "إعلان " على احد الجدران ، سواء كان ملكاً عاماً أو خاصاً دون إذن "الأمن " بالإعدام ، بعد أن يتهم بأنه "عميل " لدولة أجنبية ، طابور خامس ، إسلامي ، شيوعي ، محرض على إسقاط حكم "صدام ".
يستخدم اليوم هذا البلد "صحافة " حرة وتعبير عن رأي في كتابة شعارات ، قد تكون مبعثرة وغير مفهومة في أحيان كثيرة ، لكنها صادقة في رأي من يخطها.

□ بغداد / وائل نعمة

في عهد صدام كان يمنع منعا باتا الكتابة على الجدران. قبل "الانتخابات" أو كما يسمى حينها بـ"الزحف الكبير "،ففي عام ٢٠٠٢ كتب احدهم عبارات ضد النظام الحاكم ، إلا أن كوادر الحزب البعث رشّت الدهان على الحيطان .

شعارات ما بعد صدام

"ليسقط صدام الكافر ويحيا المؤمن بوش" ،" الموت لجميع البعثيين" شعارات كتبت على الجدران بعد سقوط صدام . يقول سعد الكاظمي " أنت تريد أن تعرف ما يفكر فيه العراقيون؟ اقرأ ما مكتوب على هذه الجدران" ! .
ويعتقد الرجل السبعيني ، صاحب مكتبة صغيرة ويغطي معظم محتوياتها التراب في منطقة الكاظمية ، بان العراق مر بمراحل متغيرة ، وكانت الشعارات المكتوبة على "الحيطان " تمثل فترة محددة من تاريخ العراق . متذكرا ما كتب على جدران المنطقة في العهد الملكي آنذاك، والتي نددت بالوجود الأجنبي ومن ثم بالملكية ولاسيما الوصي عبد الإله.
فيما يرى الموسوعي علي النشمي أنها كتابات لا قيمة لها ومعيارا للتراجع والتخلف، لاسيما وان معظم ما يكتب "غير مهم " .
النشمي يعتقد أن جذور الكتابة على الحيطان تعود الى زمن "اللاورق" ، حيث كان يقوم الإنسان بالنقش على الصخور . مشددا على أن الظاهرة هي بدون قيمة ، ومعظم الكتابات عبثية مثل " تسقط برشلونة يعيش مدريد ". في إشارة منه إلى التنافس الشديد بين مؤيدي فريقي الريال مدريد وبرشلونة الاسبانيين ، الذي تظهر نتائجه على الحائط أيضا . مقللاً في الوقت نفسه من الشعارات السياسية المكتوبة على الجدران لأنها وحسب رأيه آراء "هابطة " وتعتمد التشهير وسب الآخرين.

كتابات في فترات متغيّرة

وتنوعت الكتابات على الحيطان في أفكار متغيرة وفقا للفترة الزمنية التي كتب بها ، ويعتقد محمد سامي أستاذ التاريخ في كلية التربية بالجامعة المستنصرية ، بان الشعارات المكتوبة تمثل تاريخا صادقا على الحقب الزمنية التي مرت بها البلاد ، معتقدا أنها ربما اصدق من بعض الكتب التاريخية التي أراد كتّابها من ورائها تزييف الحقائق وتحريفها ، فيما الكتابات الجدرانية تعبير صادق عن إرادة شعب.
ربما لم يكن كل ما يكتب على الجدران نابعا من رأي نزيه ، فبعضها تحدث على دعم فكر معين ليس بالضرورة يريد الخير للجميع ، أو أنها تؤسس لمرحلة جديدة وتفسح المجال لجهات اخرى تأخذ زمام الكتابة في عهد حديث .
الكتابات التي كانت في فترة ما بعد الحكم الملكي راحت تمجد بالزعيم عبد الكريم قاسم والخلاص من نظام الملكي "المترف" ، فعبارة " ماكو زعيم إلا كريم " تشير في دلالة واضحة الى بداية التمجيد لشخص دون نظام ، أو دولة، كما يقول الناشط المدني حارث الشبيبي ،معتقدا أن للشعارات المكتوبة آثارا خطيرة لأنها تصل إلى الكثيرين وتؤسس لفكر وثقافة جديدين .

رواسب الخوف

فيما يجد أستاذ العلوم السياسية في جامعة بغداد أن الكتابة على الجدران إحدى قنوات التعبير عن الرأي .
ويضيف علي الجبوري "هذا النمط ينشط في أجواء تقييد الحريات وفي ظل الأنظمة الشمولية التي تمنع وصول رأي الجمهور الى الشارع والحكومة ، مستغربا من وجود هذه الكتابات في العراق مع فسحة الحرية وقنوات التعبير في وسائل الإعلام المختلفة . معللاً ذلك بوجود رواسب من زمن النظام المباد تتمثل في الخوف من قول الرأي الحر ، والخوف من السلطة . والدليل يبدو واضحا في محاولة بعض الأشخاص كتابة بعض الكلمات على الجدران دون أن يظهر هويته.من جانب آخر، يؤيد الجبوري فكرة إرساء الديمقراطية كثقافة وتعامل من خلال الصحافة ومؤسسات المجتمع المدني وفي المدارس لتنحصر بالمقابل ظاهرة الخوف والكتابة وراء الستار.

حسنات الكتل الكونكريتية

وبالتأكيد الشعارات التي رفعت وخطت على الجدران من قبل حزب البعث ضد حكم عبد الكريم ، لم تكن سوى إيذان ببدء مرحلة جديدة ، لم تكن إلا أسوأ فترة تمر بها البلاد ، وأدخلته في حروب وحصار وانتهت باحتلاله على أيدي القوات الأمريكية.
ووفرت الأحداث بعد ٢٠٠٣ اكبر جدارية يمكن الكتابة عليها بعد أن وضعت القوات الأمريكية والعراقية الاسيجية الكونكريتية وحوطت المناطق بالجدران ، وأغلقت المنافذ والمخارج وحددت بواحد.
وانشغلت القوات الأمنية ببناء العشرات من الجدران الإسمنتية والحواجز بين الأحياء، وصل ارتفاع الجدار الواحد منها إلى ١٢ قدما ، وكسرت الحواجز بفتحات ضيقة من قبل الجنود حيث يتم من خلالها رصد حركة المرور عبر بطاقات الهوية التي تدقق بشدة ، وحولت هذه الجدران بغداد الى عشرات من المناطق الخضراء المتماثلة ، وسعت إلى التقسيم بين الجار و جاره وخنق التجارة والاتصالات العادية.
بالمقابل، هناك من يجد الكتابة على جدران خرسانية "نشازا " ويدمر شكل المدينة ، التي فقدت بريقها بعد أعوام من الإهمال .
ويرى البعض أن منظر الكتل الكونكريتية يثير الإحباط ، فما بالك بالكتابة عليها ، هكذا يصفه الإعلامي أنور الحمداني الذي يقول " إنها زادت من تشويه منظر العاصمة ".
الحمداني يرجح أن الكتابة هي تفريغ لشحنات شخصية لبعض الجمهور ، وتحتمل الجانب السلبي والايجابي في المواضيع التي تتناولها. مشيرا الى أن الكتابة بالجانب السياسي "الايجابي " تدلل على مؤشرات خطيرة لأنها تعطي الضوء الأخضر في ان وسائل الإعلام ومؤسسات المجتمع المدني تعاني "كتم الأفواه".

شعارات بلغات مختلفة

انتشرت آلاف الشعارات بالكتابة العربية والانكليزية على الجدران الرمادية الموزعة في الساحات والشقق السكنية والمباني ، الموالون لصدام يصرخون ويتطلعون لرجوع الدكتاتورية "صدام سيأتي مرة أخرى" ، تليها خاتمة على نفس الخط " ويقتل كل خائن ".
قراءة هذه الكتابات في تلك الفترة تجعلك في حيرة، هل تضحك أم تبكي ؟ البعض منها يثير السخرية ، وبعضها مضحك ، وبعضها فني ، وآخر محزن".
يشير ماجد كريم (مدرس) إلى انه "حتى الآن ، البعض يخشى أن يقول شيئا في الصحف ، وأنا ما زلت خائفا أيضا من قول بعض الكلام أو التعرض لإحدى الجهات " مضيفا "لكن في الليل ، في جنح الظلام ، يمكن أن تكتب ما تريد".

محطات إذاعية من وراء الجدران

ويجد البعض أن كل جدار في بغداد هو مثل الراديو الحديث يفضح الاستغلال السياسي الفاحش لمقدرات الدولة، وينتقد تقصير الوزراء الخدميين ، ويرفع هموم الجمهور إلى العلن ، إنها أشبه بكلمات من القلب تبعث من دون رسول . إنها الكتابة من القلب إلى الجدار ، ودون أي تردد ، يكتبون عادة في الليل ، وفي ظل الظلام ، لذا يمكن أن يضمن لهم التعبير عن الأفكار والمشاعر الحقيقية .
فبعض الشعارات تحمل مقصدين ويمكن أن تتأرجح فوق فترتين زمنيتين "إن الجماهير أقوى من الطغاة". يقول احد العاملين في سوق مدينة الصدر المكتظ بالمارة " هذه العبارة تصلح قبل سقوط صدام وبعده".

وسيلة المهمّشين ..!

سجاد الشاب الصغير الذي تخرج من المتوسطة ولم تحالفه الظروف في إكمال دراسته اسند ظهره لحائط مليء بالشعارات ووضع أمامه صندوقا خشبيا لصبغ الأحذية ، قال افهم معنى "الطغاة" ، ولا أجد أننا قد تخلصنا من هذه الصفة بعد، مرجحا استخدامه لإصباغه ذات الرائحة القوية في كتابة ما يجول في خاطره على احد الجدران .
ويصف أستاذ الاجتماع في جامعة بغداد خالد محمد ظاهرة الكتابة على الجدران بأنها السلوك الجمعي الذي يريد كل الناس اتباعه.مضيفا " أنها للتعبير عن النفس وعن حالة يراها الكاتب بأنها ضرورية، إنها أشبه بالإعلان "، معتبراً بعض الكتابات بأنها تقليد "موضة " يتبعها البعض تشبيها بآخرين.
الأكاديمي يرى بان الجمهور يرفض الجدران الكونكريتية والحيطان الحاجزة ، لذلك كثرت الكتابات حينما زاد عدد الجدران في العراق، مشبها الوضع بما كان يجري على جدار برلين الذي كان يكتب عليه من الجهتين الرافضتين لوجوده.

عبارات تعود.. ثم يختفي بريقها

وقد عادت بعض الشعارات التي سادت معظم جدران بغداد وباقي المحافظات في خمسينيات وستينيات القرن الماضي ،وهي "بلدٌ حر وشعبٌ سعيد" ، ولكن راحت هذه العبارة تفقد بريقها شيئا فشيئا بعد أن أخذت الأحزاب الإسلامية تستولي على الشارع وتدير الكفة لصالحها ، بالمقابل كانت هناك عبارات مناهضة لهم ، تنتقد كبت الحريات وانتهاك الحقوق الشخصية ، فمنهم من كتب بالقرب من أحد "الكراجات " في وسط بغداد ليقول " لا .... ولا..... أريد اشرب بيرة ولبلبي " ، لم نستطع أن نذكر الأسماء منعا للإحراج !

الجدران تتخاصم ...!

وعاش العراقيون فترات متغيرة بعد عام ٢٠٠٣ ،لاسيما في اتفاقهم واختلافهم على الشخصيات السياسية ، فتارة يرفعونه إلى السماء، وتارة أخرى يسقطونه على الأرض عبر كتابات متناثرة بين الأحياء ، تقول حنان سعدي ، ناشطة في إحدى الجمعيات الخيرية في منطقة الحسينية " وجدت اختلافا كبيرا على إحدى الشخصيات التي جاءت بعد عام ٢٠٠٣ ، فمرة ينعتونه بالوطني ، ومرة أخرى باللص ". حنان تشير إلى أن الكثير من الشخصيات التي رمت نفسها بين أحضان الجماهير، وذهبت إلى مدنهم الأصلية بمجرد دخولهم إلى العراق، ومن ثم رفضت الناس ودفعت بهم خارج المناطق ، والكثير منهم أدار ظهره للبلد ولم يرجع.

رغم الحرية ...الكتابة مستمرة

الكتابة على الجدران ظاهرة موجودة في كل دول العالم ،لان في كل الأحوال يريد الإنسان أن يعبر عما في داخله بأية صورة من الصور ، ويعتبر الناشط المدني محمد السلامي بان الإنسان قد يسعى للتعبير عن أفكار ربما تكون غير مقبولة من الآخر.
السلامي وهو عضو منظمة تعنى بحقوق الإنسان يرى أنه على الرغم من وجود بعض قنوات التعبير عن الرأي في العراق ، إلا أننا لا نزال نواجه صعوبة في طرح بعض الأفكار بشكل علني ،لذا يحاول البعض أن يوصلها بطريقة بسيطة عبر الكتابة على الحائط.
إن العراقي يتحايل على بعض الإمكانات لكي يوصل فكرته، وقد تكون بعضها قاسية وحادة ، كما يوضح الناشط السلامي الذي يقول " بعض الجمل التي تكتب على الجدران يعاني كتّابها من الكبت ، وعدم استطاعة الجمهور تقبلها بشكل عام ، لذلك يطلقها في مجال ضيق لا يتعدى حدود منطقته التي يعيش فيها ".
بالمقابل، البعض يصطدم بالرفض في محاولته للترويج عن بعض القضايا ، التي يراها الجانب الآخر غير مهمة أو جزئية، بينما يرى الكاتب أنها "مهمة جدا " ، لذلك يسعى للتعبير عنها في الكتابة على الجدران "اضعف الإيمان".

حائط "الفيسبوك"

من جانب آخر، يأخذ "الفيسبوك " موضع الجدران في زمن ثورة الاتصالات ،يقول الناشط على موقع التواصل الاجتماعي حيدر محمد :إن "الفيسبوك عالم آخر يتخفى وراءه بعض الشخصيات بأسماء وصور وهمية وينشر آراءه بكل حرية ". معتقدا بأنه يحل محل الجدران لاسيما وانه يحمل خاصية "الحائط " على الموقع الشخصي والذي يمكن الكتابة عليه.
وأخيراً حينما رأى العراقيون الجدران الخرسانية بدأت في الظهور في جميع أنحاء بغداد ،فكر بعض الفنانين باستغلالها للرسم عليها بدلا من تركها "صامتة " بلا صوت ولا حركة، وبذلك استطاعوا أن يمحوا بعضا من الكتابات.
وقامت مجموعة من الفنانين بالرسم على ما يقارب بالنصف ميل من الجدران الواقية بمناظر طبيعية وتمثل فترات من التاريخ العراقي. ويعتقد الرسامون بأنه لو كانت الجدران ضرورية لحماية المباني من الشاحنات المفخخة والإرهابيين ، فإنها يمكن أن تكون جميلة على الأقل.
ويقول سامر لازم طالب في معهد الفنون الجميلة "نريد أن يشعر الناس ببيئتهم ، ونذكرهم بتاريخهم ، و نأمل أن يتذكر بعض الناس بأن هناك أخبارا طيبة في هذا البلد ،و ليست كلها سيئة.مؤيدا فكرة الرسم على الجدران بدل الكتابة.

متخصصون: الحيطان جزءٌ من قنوات التعبير عن الرأي

مراقبون: الكتابة على الحائط دليلُ تخلف وتشويه لمنظرً العاصمة

الرأي على الجدار يمثّل رواسب الخوف من السلطة

مواطن يكتب على حائط حر

باب وشعار